ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:09، العدد: 01 (2024) ص 137 - 148

تفاعل الأدلة اللغوية في ظل النظرية البنيوية السوسورية

The interaction of linguistic signs in light of Saussurean structural theory

حسين قاضي*
جامعة خميس مليانة (الجزائر)
h.kadi@univ-dbkm.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024/03/27
تاريخ القبول:
2024/05/01

الكلمات المفتاحية:
- ✓ التفاعل
- ✓ الأدلة اللغوية
- ✓ العلاقات الترابطية
- ✓ العلاقات التركيبية

الملخص:

يعد وصف النظام اللغوي والوقوف على آليات اشتغاله، وتفسير العمليات اللغوية الذهنية وتعليلها قبل النطق وأثناءه من صميم اهتمام اللسانيين المحدثين بشتى انتماءاتهم الفكرية والمنهجية. وقد جاء هذا المقال لمعالجة آلية من الآليات التي تعمل بها اللغات الطبيعية حسب ما يراه دي سوسير في نظريته البنيوية كجزء من عمل النظام اللغوي، وذلك بتركيزه على التفاعل الدائم بين الأدلة اللغوية داخل النظام، سواء أكان ذلك التفاعل بين الأدلة في الذهن بصورة غيابية، أو بينها بصورة حضورية على السطح المنطوق، وهما التفاعلان المسميان بالعلاقات بين الأدلة اللغوية ضمن العلاقات الترابطية من جهة والعلاقات التركيبية من جهة أخرى. إن رؤية سوسير المبكرة لما يتعلق بطريقة عمل الجهاز اللغوي يمكن عدها نواة لتَوَجّه اللسانيين في النصف الثاني من القرن العشرين خاصة مع النظرية التوليدية التحولية.

Article info

Received
27/03/2024
Accepted
01/05/2024

Keywords:
- ✓ *interaction*
- ✓ *linguistic signs:*
- ✓ *paradigmatic relations*
- ✓ *syntagmatic relations*

Abstract :

Describing the linguistic system, understanding its mechanisms, and explaining and analyzing the mental linguistic processes before and during speech are central concerns for modern linguists of various intellectual and methodological backgrounds. This article examines one of the mechanisms by which natural languages operate according to de Saussure's structuralist theory, as part of the linguistic system's function, by focusing on the constant interaction between linguistic signs within the system, whether that interaction is implicit between signs in the mind or explicit between signs at the spoken surface level. These are termed the paradigmatic and syntagmatic relations between linguistic signs. Saussure's early perspective on how the linguistic apparatus works can be seen as a nucleus for linguists' orientation in the second half of the 20th century, especially with the transformational generative theory.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

شاعت البنيوية إثر ذلك التحول المعرفي والموضوعي الذي طرحه اللساني الشهير فرديناند دي سوسير Ferdinand De Saussure (1857- 1913م) فأحدث من خلاله ثورة في مجال الدراسة اللسانية، أدت بدورها إلى تشكّل قطيعة بين ما كان سائدا من درس لساني تقليدي تاريخي ومقارن غير مهتم باللغة في ذاتها، وبين ما دعا إليه من درس مهتم بتناول اللغة داخليا في ذاتها ومن أجل ذاتها، حيث سعى صاحبها لأن يضمن للبحث اللساني مكانة بين العلوم بما يطرحه منتسبوه من آراء ونظريات علمية متكاملة الأركان تعنى بتفسير قضايا اللغة وتعليلها، أو وصفها وصفا علميا، متجاوزة مجرد التجميع والعرض والتناول السطحي للظواهر، لأن النظريات اللسانية -كغيرها من نظريات العلوم الأخرى- تشكل أساسا متينا في بناء المعارف وضبطها، وتقديم حلول علمية للأزمات التي يعاني منها البحث اللغوي.

وقد أقام دي سوسير نظريته البنيوية التي تهدف إلى دراسة اللغة دراسة علمية على مجموعة من المبادئ والمرتكزات منها ما تعلق بموضوع الدرس اللساني ومنها ما تعلق بالمنهج العلمي الأنسب لدراسة اللغة... إلخ، ففي مجال المنهج رأى أن الدراسة الوصفية الآنية التي تهدف إلى معرفة القوانين التي تحكم اللغة أولى بالتقديم من الدراسة الزمانية المستندة إلى كثير من المعطيات غير اللغوية،أما في مجال الموضوع فانطلق الرجل من مفهوم النظام أو النسق، حيث ذهب إلى أن اللغة نظام علائقي داخلي،(ينظر: جرهاد، 2003. ص: 75) ومن ثم فهي شكل وليست مادة،وقد قدم في سبيل شرحه ذلك المفهوم مجموعة من الثنائيات المتقابلة كثنائية اللغة والكلام، وثنائية الدال والمدلول المشكّلين للدليل اللغوي. هذا الأخير ذو قيمة كبيرة في نظرية دي سوسير التي يرى من خلالها صاحبُها أن اللغة نظام من الأدلة، غير أن قيمة تلك الأدلة تزداد أكثر فأكثر حين تتفاعل الأدلة تلك فيما بينها، فما المقصود بتفاعل الأدلة؟وما أنواعه؟ وما قيمته داخل النظام اللغوي؟

سنحاول فيما يلي الإجابة عن تلك الأسئلة وعن أخرى متفرعة عنها، وذلك بالتركيز على العناصر التالية:

2. الدليل اللغوي في الفكر السوسوري:

إذا كانت اللغة – موضوع الدرس اللساني- في نظر دي سوسير نسقا أو نظاما من الأدلة، فقد شكل الدليل اللغوي أهم الأركان التي بنى عليها الرجل نظريته، حتى عُد مركزَ أبحاثه، فطفق يعرّفه، ويكشف عن طبيعته، ويعدد خصائصه، ويبين علاقة بعضه ببعض... إلخ، وهو في منظوره كيان سيكولوجي ذو وجهين مرتبط أحدهما بالآخر (ينظر: دي سوسير، 1985. ص: 84) ارتباطا اعتباطيا، فلا يُتصور أحد الوجهين دون الآخر. وهذان الوجهان المشكلان للدليل هما الصورة الصوتية التي يسميها دي سوسير دالا Signifiant، والمفهوم أو الصورة الذهنية التي يسميها مدلولا Signifié، وباتحادهما يشكلان دليلا signe، وإن من أهم خصائص الدليل اللغوي عند دي سوسير الاعتباطية Arbitraire الجامعةَ بين وجهيه والتي يراها علاقة مطردة إلا فيما ندر من الأدلة اللغوية، هذا فضلا عن خاصية الخطية Linéarité التي تشير إلى ذاك التتابع الزمني لعناصر الدليل اللغوي، فلا يمكن تصور حصول عنصرين من عناصره في نقطة زمنية واحدة شأنها في ذلك شأن المفهوم الرياضي للخط. يضاف إلى هاتين الخاصيتين خاصية القيمة valeur التي تتحدد بتلك العلاقات التي يقيمها الدليل اللغوي بالتقابل

مع بقية الأدلة داخل النظام اللغوي الواحد. (ينظر: غاري بريور، 2007. ص: 96) فمن النظام اللغوي المنضوي تحته يستمد الدليل اللغوي قيمته وفق ما تواطأ عليه المجتمع وقرره.

3. تفاعل الأدلة:

من خلال ما عرّفنا به دي سوسير من حقائق عن اللغة خاصة ما تعلق بكونها نظاما من الأدلة الصوتية الاعتباطية، ومن خلال كشفه عن حقيقة ثنائية الدليل اللغوي –باعتباره أهم ما يشكل النظام اللغوي– مع ما تميز به من خصائص لاسيما ما تعلق بطبيعته السيكولوجية، وبالاعتباطية التي تجمع بين طرفيه،وبالخطية والقيمة، يتبادر إلى أذهاننا سؤال هو: هل يمكن للدليل اللغوي وحده أن يفي بغرض التواصل؟ أو هل بمقدور الأفراد أن يتواصلوا بمفردات مستقلٍ بعضُها عن بعض؟

للإجابة عن هذا السؤال يمكننا أن نضرب مثلا برجل عربي جاهل باللغة االإنجليزية، فحاول أن يتعلمها فعمد إلى معجم إنجليزي فحفظ كثيرا من الألفاظ بمعانيها، فكان منها الأسماء والأفعال والظروف والضمائر وغيرها من الوحدات المعجمية، فصار يعرف أن (pencil = قلم / book = كتاب / airplane = طائرة / bread = خُبز / water = ماء / gold = ذهبٌ/ write = يكتب / eat = يأكل/ he = هو / she = هي / yesterday = أمس / tomorrow = غدًا / yes = نعم/ no = لا / To = إلى...إلخ) فهل يمكِّنه ذلك الرصيد من الأدلة اللغوية من التواصل باللغة الإنجليزية بأريحية أم ستعترضه صعوبات، خلافا لمن نشأ على تلك اللغة أو تعلمها واكتسب نظامها؟

الواضح أن هذا الرجل سيعجز عن التواصل المريح بالإنجليزية أو بغيرها من اللغات إذا ما اتكل على المعجم وحده، لا لشيء إلا لأن اللغة ليست مجرد ركام من المفردات، بل هي – كما ذهب إلى ذلك دي سوسير– نظام أو شبكة من العلاقات الداخلية التي تنتظم وفقها تلك الوحدات اللغوية، فلا يمكن أن نتصور اللغةَ مجموعة من الألفاظ تؤخذ من القواميس أو تُتَلقف من الخطابات وتُسجل في الذاكرة كما قال عبد الرحمن الحاج صالح، (ينظر: صالح، 2007. ص: 191) ولذلك فإن هذا العربي سيعجز عن التواصل رغم معرفته كثيرا من العلامات اللغوية، ولن يتواصل بها إلا كما يتواصل الأطفال الصغار بتعبيرهم عن الفكرة بكلمة واحدة – وقد لا تصلح في ذلك المقام– لافتقارهم للنظام الذي يربط الوحدات بعضها ببعض، ويمكّنهم من الانتقال في استعمال اللغة من حال الإفراد إلى حال التركيب، مستعينا بالقواعد الخاصة بالعلاقات التركيبية التي لا يكتسبونها إلا بمرور الزمن والتقدم في السن، وذلك في مرحلة تالية لمرحلة اكتساب المفردات.

إن الواجب على هذا العربي – حتى يتواصل بالإنجليزية– أن يتعلم أهمَّ ما يمثل تلك اللغة، وهو نظامها الداخلي مُمَثّلا في قواعدها الصوتية والصرفية والتركيبية وحتى الجوانب الدلالية، لا لشيء إلا لأن الناس جميعا، وعلى اختلاف لغاتهم، لا يتواصلون بمفردات مستقا بعضها عن بعض، وإنما يتواصلون — في الغالب– بجملٍ ذات أنماط وقواعدَ خاصةٍ، مشتملةٍ على كل مستويات اللغة صوتا وصرفا وتركيبا ودلالة، وهي المستويات التي تتفاعل عناصرها فيما بينها مشكّلة كلاً متكاملا أو بناءً مرصوصا، ولذلك اعتُبرت الجملة عند كثير من اللسانيين أهمَّ وحدات التحليل اللساني لتضمُّنها بقيةَ مستويات اللغة، كما اعتُبرت العلاقات بين الوحدات اللغوية داخل النظام الواحد والتفاعلُ فيما بينها الهدفَ الذي يسعى المحللُ اللساني للكشف عنه، سواءٌ تعلق الأمر بعلاقة الوحدة ببقية الوحدات التي قد تحلّ محلها وتقع موقعها في الجملة، أو تعلق الأمر بعلاقتها بالوحدات التي تتركب معها في الجملة فتسبقها أو تلحقها، ولذلك لا غرابة أن نجد

من اللسانيين بعد دي سوسير من بنى تعريفه للغة على الجملة فعدّها – أي اللغة- مجموعة متناهية أو غير متناهية من الجمل كما فعل تشومسكي. (ينظر: مومن ، 2002. ص: 209)

يبدو – إذن– أن الوصف الدقيق للغة مرهون ببيان العلاقات بين الأدلة اللغوية فضلا عن العلاقات بين العناصر غير الدالة، ما دامت تحكمُ اللغةَ شبكةٌ شديدة الترابط من العلاقات والتراكيب، ومن ثَم لا تكتسب الأدلةُ اللغويةُ – بل كلُّ مكونات اللغة– قيمتَها إلا من خلال ما تقيمه من علاقات فيما بينها ترتبط على إثرها مختلف العناصر والأجزاء بالكل. (ينظر: مومن، 2002. ص: 134) وهو الأمر الذي ركز عليه دي سوسير حين عدّ شبكة العلاقات التي تربط الأدلةَ اللغوية بعضَها ببعض من أهم أركان النظام، إذ " يعتمد كل شيء في الحالة اللغوية على العلاقات" (سوسير، 1985. ص: 142) ولذلك وجب أن تأخذ تلك العلاقات وذلك التفاعل الداخلي بين عناصر النظام قسطا كبيرا من اهتمام الدارسين.

وقد أكد روبنز Robert Henry Robins (1921- 2000م) في موجزه أن دي سوسير يرى أن أي لغة من اللغات يجب أن يُنظر إليها نظرة تزامنية لا تعاقبية، وأن توصَف بكونها نظاما من العناصر المترابطة، حيث تتفاعل فيها العناصر المعجمية والقواعدية والصوتية، وليس بوصفها كيانات مستقلا بعضها عن بعض، وهو ما قاده إلى القول بأن اللغة عبارة عن صيغة أو شكل وليست مادة. وتقوم تلك العلاقات المتبادلة للتركيب اللغوي التزامني في أي لغة على بعدين أساسيين، أحدهما البعد الأفقي syntágmatic الخاص بتتابع المنطوق، وثانيهما البعد الرأسي أو الترابطي Paradigmatic associative الخاص بأنظمة العناصر أو الفئات المتقابلة. (ينظر: روبنز ، 1997. ص: 288)

يمثل هذان البعدان اللذان تناولهما دي سوسير – وهما البعد الأفقي والبعد الرأسي– نوعين من العلاقات بين الأدلة داخل النظام اللغوي، هما على التوالي: العلاقات التركيبية أولا، وهي المتعلقة بتوزيع الوحدات الدالة داخل الجملة أو التركيب، وهي وحدات محددة من حيث العدد بما يتيحه النظام اللغوي، والعلاقات الترابطية ثانيا، وهي المتعلقة بالاختيار أو الاستبدال بين كثير من الوحدات الدالة المتقابلة. وهذان النوعان من العلاقات –كما قال دي سوسير-:" يماثلان أسلوبين من النشاط العقلي، لا غنى عنهما لحياة اللغة " (سوسير، 1985. ص: 142) حيث لا تُتَصور لغة من اللغات البشرية الطبيعية مهما كان مستواها خاليةً من هاتين العلاقتين، ولا يمكن لنظام لغوي خاصٍ بمجموعة ما كبيرةٍ أو صغيرة، بائدة أو باقية، متحضرةٍ أو غيرِ متحضرة، موجودة أو لم توجد بعد، أن يتبلور دونهما، ولذلك عُرِّف النظام أو النسق (Système) كما جاء في معجم ماري نوال بريور بكونه:" كل علامة تختص بعلاقات تقيمها مع علامات أخرى. تأخذ هذه العلاقات مظهرين: علاقات تركيبية... وعلاقات ترابطية." (غاري بريور، 2007. ص: 106)

4. أنواع تفاعل الأدلة:

إن العلاقتين السابقتين أساس قيام النظام اللغوي، وعليهما يعوّل كل مستعمل للغةٍ ما لأنهما نشاط عقلي حتمي ومستمر وعاه المستعمل أو لم يعِه، يتم فيه تفاعل الأدلة اللغوية فيما بينها وفق ما يلي:.

1.4 تفاعل حضوري للأدلة: يكون ضمن العلاقات التركيبية syntagmatiques، حيث تتفاعل الأدلة اللغوية في إطار العلاقات التركيبية التي تعقد بين وحدتين دالتين فأكثر من أجل تراكيبَ وأنماطٍ معينة للوحدات وفق ما هو معروف من اختصاص كل لغة بقواعد تركيبيةٍ معينةٍ تمكّن مستعمليها من التوزيع الأنسب للمفردات وهو التوزيع المفضي للبناء الصحيح للجمل، ولا تُعرف قيمة كل وحدة

لغوية إلا من خلال تقابلها مع وحدات أخرى تسبقها أو تلحقها أو من خلالهما معا، (ينظر: مومن ، 2002. ص: 130) وهو المقصود بالتفاعل الحضوري لأن كلاً من تلك الوحدات الواقعة في مدرج الكلام قد تم اختيارها، ومن ثم قد سبق لها وأن تفاعلت تفاعلا غيابيا مع وحدات أخرى لم يتم اختيارها لأسباب متعددة. يقول دي سوسير:" نحن عادة لا نتفاهم باستخدام إشارات فردية معزولة، بل باستخدام مجموعات من الإشارات، أو كتل منتظمة، هي في حد ذاتها إشارات. ففي اللغة يمكن إرجاع كل شيء إلى الفروق وكذلك إلى المجموعات." (سوسير، 1985. ص: 148)

فهذا النوع من العلاقات يظهر أثناء الإنجاز الفعلي للغة، وهو وإن كان متعلقا أيضا بانتظام عناصر الكلمة وتسلسلها- أي الأصوات- إلا أن الذي يعنينا هنا هو بانتظامُ الوحدات الصغرى الدالة في الجملة وتسلسُلها – ونقصد بذلك الكلمات- على شكل خطيٍّ حيث تأتي متدرجةً، كلُّ عنصر عقب الآخر – كما هو معروف لدى دي سوسير في خاصية الخطية التي تتميز بها اللغة عامة والدليل اللغوي خاصة – فالعلاقة المجيزة لاجتماع فعل ما بفاعل ما سواءٌ أتى الفاعل تاليا للفعل كقولنا:(جاء الرجل) أو أتى الفعل تاليا للفاعل كقولنا:(الرجل جاء) بإسناد الفعل (جاء) إلى من يُتَصَوَّر منه المجيء، وهو (الرجل)، أو العلاقةُ المانعة لاجتماع فعل ما بفاعل ما كقولنا – وقد جانبنا الصواب-: (تألم الشَّعر) لعدم إمكانية إسناد فعل الألم للذي لا يُتصور منه ذلك، أو قولنا في تركيب غير متعارف عليه:(الساعةِ أيقظني منبهُ باكرا) مع ما يلاحظ من فرق بين ذلك وبين قولنا: (أيقظني منبه الساعة باكرا) أو (منبه الساعة أيقظني باكرا) أو غيرها من التوزيعات الصحيحة، كل ذلك من العلاقات التركيبية الخاصةِ باللسان العربي المميزةِ له عن بقية الألسن، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية الألسن التي ينفرد كل منها بما يخصه من قواعد تركيبية تتفاعل في إطارها الوحدات الدالة تفاعلا حضوريا.

إن خاصية الخطية التي تتسم بها اللغات الإنسانية ويتسم بها الدليل اللغوي إنما هي متعلقة بذاك التفاعل الحضوري بين العناصر اللغوية، وهو التفاعل المفضي إلى التركيب، فإذا كان ذاك التفاعل بين الوحدات الدالة نشأت التراكيب والجمل وفق صورة خطية، كما أن ذلك التفاعل الحضوري يحدث أيضا بين الوحدات غير الدالة ليفضي إلى وحدة دالة مركبة من فونيمات تفاعلت فيما بينها تفاعلا حضوريا، ومن ثم لم تكن الأدلة اللغوية المتسمة بالخطية أيضا سوى نتاج علاقات تركيبية على مستوى الدليل، ولعل من مظاهر ذاك التفاعل بين الوحدات الصغرى غير الدالة في اللغة العربية ما يتيحه نظامها لأبنائها من وجوب بدء تركيب المفردة بمتحرك ومنعهم من البدء بساكن، خلافا لكثير من اللغات الأخرى، كما يمنعهم من أن يتوالى ساكنان، ويمكنهم من إنتاج أفعال على الأوزان التالية: (فَعَلَ، فَعُلَ، استفعل، تفاعل، افعوعل...إلخ) أو أسماء على الأوزان التالية (فَعَل، فِعال، فاعِلة، مِفعال، استفعال...إلخ) ويمنعهم من إنتاج أفعال أو أسماء من ستة عشر صوتا مثلا، كما يمنع توالي بعض الأصوات أو اجتماعها في كلمة واحدة وفق ما ينصّ عليه النظام الصوتي العربي. فتلك القواعد الصرفية التي تُبنى الوحدات الدالة على منوالها ليست سوى محصلة علاقات تركيبية على مستوى المفردات تتفاعل فيها الوحدات الصغرى غير الدالة تفاعلا حضوريا، فالفعل (كتب) لم يتحول إلى بنية إلا بفضل ذلك التفاعل الحضوري ضمن العلاقات التركيبية التي عقدت بين عناصره (الفونيمات) وفق هذا التسلسل: ك + فتحة + ت + فتحة + ب + فتحة = كَتَبَ، ولو غيرنا التوزيع لحصلنا على تراكيب أخرى ليس لها معنى، أو لها معنى غيرُ معنى الفعل(كتب) مثل: كبت، تكب، تبك، بتك، بكت.

ولذلك فإن كل التراكيب والبنى المتاحة في لسان ما – سواء كانت وحدات مفردة أو جملا- منطويةٌ على علاقات تركيبية تسمح لعناصرها بالتفاعل والتوزع والانتظام وفق طرائق خاصة، وتمنع توزعها وفق طرائق أخرى لا يتيحها نظام تلك اللغة، و" لا قيمة

للكل إلا من خلال أجزائه، كما لا قيمة للأجزاء إلا بفضل موقعها في الكل. لذلك لا تقل العلاقة السنتاكمية (التركيبية) بين الجزء والكل أهمية عن العلاقة بين الأجزاء." (سوسير، 1985. ص: 147)

2.4 تفاعل غيابي للأدلة: يكون ضمن العلاقات الترابطية Paradigmatiques التي تجمع بين الأدلة اللغوية فيتم الاختيار بينهما واستبدال بعضها ببعض، ويذكرنا هذا النوع من العلاقات بالحقول الدلالية وما تتيحه من تجمّعات، حيث ترتبط الوحدات المخزَّنة في الدماغ والمشكِّلة للرصيد اللغوي وتتفاعل فيما بينها على شكل مجموعات متشابهة أو بينها روابط في جانب الشكل (الدال) أو في جانب المضمون (المدلول) أو فيهما معا، كأن يجمع بينها جذر واحد (enseignement- enseigner- enseignons...)، أو لواحق متشابهة (enseignement- justement- changement- chargement ...)، أو دلالة مشتركة (enseignement- apprentissage- éducation- instruction...)، أو يجمع بينها كل ذلك، يقول دي سوسير:" قد ينبع الارتباط الإيحائي (العلاقات الترابطية) من القياس للفكرة الموجودة في المدلول... وقد يتكون الارتباط من مجرد التشابه في الصور الصوتية... وهكذا نجد في بعض الأحيان تشابها ثنائيا في المعنى والشكل، وفي أحيان أخرى تشابها في الشكل أو المعنى فقط، فالكلمة تستطيع دائما أن توحي بكل ما يرتبط بها على هذا النحو أو ذاك." (سوسير، 1985. ص: 144)

فالوحدات اللغوية التي تم اختيارها وتوظيفها والتي تعتبر جزءا من التركيب ترتبط من جهة ثانية –خارج السياق– بوحداتٍ أخرى عديدةٍ في الذاكرة، منتميةٍ إلى الصنف الصرفي أو النحوي نفسه، إذ يمكن أن يستبعد بعضُها بعضا ويحل محله وهي الحقيقة التي يؤكدها دي سوسير، حيث يرى أن الوحدات اللغوية الدالة تكتسب علاقاتٍ خارج الحديث، غير تلك العلاقات التركيبية، فالكلمات التي يجمعها أمر ما ترتبط معا في الذاكرة، مؤلِّفةً مجموعات ذات علاقات متنوعة، فالكلمة الفرنسية enseignement (تعليم) مثلا ذات علاقة بعدد كبير من الكلمات التي ترتبط بها بصورة لا شعورية مثل (enseigner (يعلم)، renseigner (يتعرف على) وغيرهما من الكلمات التي ترتبط بذاك المثال الأول بطريقة ما. (ينظر: سوسير، 1985. ص: 142) كأن يكون ذلك الارتباط قائما على مناسبة شكلية، أو على علاقة دلالية تجمع بين الوحدات كالتباين أو التقابل والتضاد أو الترادف أو التضمن والاشتمال أو التضايف أو غيرها من العلاقات التي ينتج عنها ارتباط إيحائي.

ولم تُدرج الوحدة اللغوية المعيّنة دون بقية الوحدات التي تشترك معها، أو قد تحل محلها في التركيب، إلا لأن الدماغ اختارها – دون سواها– لكونها الأنسب للتعبير عن الفكرة، ولملاءمتها بقية عناصر التركيب، أو لأن رصيد مستعمِل اللغة لا يتوفر سوى على تلك الوحدة، أو لجهله بالفرق الدلالي بينها وبين ما يقاربها معنىً، كما هو موضح في الجدول التالي:

الجدول 1:

الحدث	القائم به	الواقع عليه
قتلَ	القاتلُ	الريءَ
جرحَ	الظالمُ	المرأةَ
طعنَ	السفاحُ	الشيخَ

خنقَ	المجرمُ	الطفلَ
ضربَ	**اللصُ**	**الرجلَ**

فهذا البناء المشكل جملةً (**ضربَ اللصُّ الرجلَ**) لم نحصل عليه إلا بعد نشاط عقلي أسفر عن عمليتين أتاحهما النظام، حيث تم التفاعل أفقيا وحضوريا بين هذه العناصر الثلاث (ضرب + الرجلُ + اللصَّ) وفق ترتيب معين جعل من الجملة جملة فعلية ومثبتة وبسيطة وخبرية، وهو تفاعل خاص بالعلاقات التركيبية، ولو اختلف الترتيب لاختلفت الجملة وعبرت عن فكرة أخرى كقولنا: (ضرب الرجلُ اللصَّ) وهي أيضا جملة فعلية ومثبتة وبسيطة وخبرية، ولكن فاعلها كان مفعولا في التركيب السابق، وكقولنا أيضا: (اللصُّ ضرب الرجلَ) حيث تغير التوزيع فتحولت الجملة الأولى من الفعلية إلى الاسمية ومن البساطة إلى التركيب ومن ثَم تحولت الوحدة الدالة (اللصُّ) من الفاعلية إلى المبتدأ وتحول الفاعل من الظهور إلى الاستتار في الجملة الفعلية الواقعة خبرا .

كما تم التفاعل من ناحية أخرى وفق المحور العمودي بين كل عنصر من تلك العناصر الثلاث المشكِّلة للتركيب وبين عناصرَ أخرى كثيرة غائبة عن الأداء لكنها حاضرة في الذاكرة، وبينها وبين ما تم اختياره علاقات متعددة سواء من حيث شكلُ دالِّها أو من حيث مدلولُها، ولذلك يمكنها عن طريق الاستبدال وإعادة الاختيار أن تحل محل المذكور، وذلك تبعاً لقصد المنشئ، وحسب المقام وما يقتضيه من مقال، ومن ثم يمكننا الحصول –انطلاقا من ذلك التفاعل الخاص بالعلاقات الترابطية الغيابية– على جمل كثيرة عن طريق تعويض العنصر الحاضر(ضرب أو الرجل أو اللص) بالعناصر الغائبة التي يمكنها أن تقوم مقام الحاضر المذكور، ومن ذلك تعويض الفعل (ضرب) بالأفعال: قتل/ جرح/ خنق/ آذى ...إلخ، أو تعويض الفاعل (اللص) بالفاعلين: القاتل / الظالم/ السفاح/ المجرم...إلخ، أو تعويض المفعول (الرجل) بالمفعولين: البريء / المرأة / الشيخ / الطفل...إلخ. وانطلاقا من ذلك تتشكل في كلِّ اللغات كلُّ الجمل التي يتواصل بها بنو البشر حسب ما يتيحه نظام كل مجتمع.

ولئن كان التفاعل بين الأدلة اللغوية على مستوى المحور الأفقي قائما على التوزيع والتجاور والسباق واللحاق وكل ما يشتمل عليه السياق اللغوي ضمن النظام التركيبي المعيَّن، فإنه على مستوى المحور العمودي قائم على علاقات شكلية ودلالية متنوعة ترتبط وفقها الأدلة اللغوية من تباين وترادف وتضاد وتضمن وتضايف وغيرها من العلاقات التي تبرز فيتم وفقها اختيار الدليل اللغوي الأنسب للتعبير عن الفكرة المعينة، كما يتم وفقها أيضا استبعاد بقية الوحدات التي تصلح أن تقع موقعها لغرضٍ ما يريده مستعمل اللغة. أو لغير ذلك من الأسباب، ولذلك يتم الاختيار لتحقيق المراد من بين قائمة العناصر التي تعقد بينها علاقةٌ ترابطية في الذاكرة بناء على:

- ما يراد تبليغه من معنى، فنقول: (**قُتِل** الرجل) بدل (**مات** الرجل) أو (**أُعدم** الرجل) لما بينها من فرق دالٍّ على كونه مات مغدورا نتيجةَ اعتداء مثلا، فكل الأفعال المذكورة تدل على المصير نفسه الذي صار إليه الرجل وهو مفارقة الحياة، غير أن القصد من الخبر خاصٌ، وتترتب عليه فائدة معينة تشير إلى كونه مظلوما، وإلى ضرورة الاقتصاص من قاتله، وإلى أن قاتله مجهول، وإلى أنه لم يمت حتف أنفه، ولم يطبق عليه القصاص فيكون قد نال جزاءً مقابل جرم اقترفه.
- ما يحتاجه السياق اللغوي، فلا نختار إلا ما يتلاءم مع بقية الوحدات المسهمة في التركيب، فنقول:(أجب **عن** السؤال) ولا نقول:(أجب **على** السؤال)، ونقول: (**جاءت** الطالبة) ولا نقول: (**جاء** الطالبة)، ونقول: (**أجابني** الطلبة) ولا نقول: (**أجابوني**

الطلبة)، ونقول: (**رجل** ذكي) ولا نقول: (**طأس** ذكي)...إلخ، فلا يكون الاختيار عشوائيا، وإنما تراعى بقية العناصر التي تُختار أيضا وتدخل في تركيب الجملة تحقيقا للتفاعل الحضوري الذي يحصل بالتزامن مع التفاعل الغيابي، ففي الوقت الذي يتم فيه الاختيار فتتفاعل على إثره كثيرٌ من الوحدات المخزنة في الذاكرة، يتم أيضا وفي الوقت نفسه التوزيعُ الذي تتفاعل على إثره وحدات معدودة، وهي الوحدات المختارة.

- ما يتلاءم ورصيد الفرد من المفردات، فقد يتم اختيار مفردة جهلا بغيرها، فقد يقال: (**أخفى** غيظه) جهلا ب (**كظم** غيظه) و (**شرهت** نفسي) جهلا ب(**لقِست** نفسي) و (**شرب** القهوة) جهلا ب (**ارتشف** القهوة) و (**أكلت** الدابة شعيرها) جهلا ب (**قضمت** الدابة شعيرها).

ما يرغب فيه المنشِئُ، كأن يختار لفظة دون سواها، لا عن جهل بغيرها، ولكن **لرغبة شخصية** كأن تكون أكثر تداولا، أو أخف من غيرها، أو ذات وقع خاص، أو لتشكيلها مع غيرها جناسا أو سجعا، أو لأنها تمكِّنه من التورية إذا قصد ذلك وكانت اللفظة متعددة المعنى، أو لأنها غريبة خاصة إذا كان المتكلم متفاصحا مولعا بالغريب متقعرا في كلامه فيتعمد اختيار الغريب من الألفاظ بدل الشائع المستعمل منها، كأبي علقمة النحوي الذي صار يضرب به المثل في اختيار التقعر والإغراب أسلوبا له، وهو المنقول عنه قوله: ما لكم قد تكأكأتم عليَّ كما تتكأكؤون على ذي جنَّةٍ ؟ افرنقعوا عني، (ينظر: ابن الجوزي، 1997. ص: 123) ولا يعني التكأكؤ والافرنقاع في العربية سوى التجمع والتنحي على التوالي، فبين ما اختاره وما استبعده علاقة ترابطية قائمة على الترادف، ولو أنه اختار (تجمعتم) و(تنحوا) بدل (تَكَأْكَأْتُم) و(افْرَنْقِعوا) لتحدثنا حينها أيضا عن حصول تفاعل غيابي بين الوحدات الدالة، ولتحدثنا أيضا عن سببٍ ما أداه إلى اختيار الوحدتين الدلاليتين (تجمعتم) و(تنحوا) بدل كثير من الوحدات التي ترتبط مع ما اختاره وتتفاعل فيما بينها غيابيا.

ويمكننا التمثيل وفق المحور المتعامد التالي لهاذين التفاعلين إذا ما تحدثنا عن فكرة التغذية —مثلا– التي تتفاعل فيها قائمة طويلة من الأفعال مثل: (أكل، تناول، قضم، خضم، بلع، هضم، لعق، نهش، لدغ، لسع، امتص، اجتر، افترس، شرب، احتسى، رضع، ارتشف... إلخ)، تقوم بها قائمة من الفاعلين مثل: (الولد، الأسد، الثور، الديك، الدابة... إلخ)، وتوقعها على قائمة من المفعولين مثل: (التفاحة، الماء، الشعير، الحليب، العشب... إلخ) فنحصل على جمل متعددة ذات أنماط كثيرة، سنكتفي منها بالجمل الفعلية البسيطة المشكلة من فعل وفاعل ومفعول وفق هذا الترتيب، ولكن ليس بطريقة عشوائية، وإنما بشرط مراعاة العلاقات التركيبية المتسمة – كما عرفنا– بسمة الخطية، إضافة إلى كون الاختيار من بين عناصر تلك القوائم محكوما بالنقاط التي ذكرناها سابقا، والجدول التالي يوضح ما نعنيه:

الجدول 2:

1– أكلَ	**1– الديكُ**	1– الحليبَ
2– امتصَّ	**2– الولدُ**	**2–** الديكَ
3– اجترَّ	**3–** الأسدُ	**3–التفاحةَ**

4- افترسَ	4- الثورُ	4- الولدَ
5- شرب	5- العشب	5- الماء
6- احتسَى	6- الصعلوكُ	6- الخمرةَ
7- رضعَ	7- المولودُ	7- العشبَ
8- قضمتْ	8- الدابةُ	8- الشعيرَ
أكـــــلَ الولـــــدُ التـفاحـــةَ		

فالملاحظ للأمثلة المطروحة وفق الشكل السابق يتضح له أن كثيرا من التراكيب لا يصح استعمالها لغياب التفاعل الحضوري الذي يفرضه النظام التركيبي بين عناصرها، وهي الأمثلة التي تحمل رقم (1، 2، 3، 4، 5، 7) حيث إن كل مثال من الأمثلة التي تحمل الأرقام التي سبق ذكرها تعدّ تراكيب غير صحيحة من حيث الدلالة لغياب التفاعل بين عناصر ها على الرغم من كونها تبدو صحيحة نحويا لتألّفها من فعل وفاعل ومفعول به، ولذلك لا يسمح النظام بإنتاجها إلا على سبيل التمثيل كما فعلنا، وتلك التراكيب على التوالي: (أكل الديكُ الحليبَ) و(امتص الولدُ الديكَ) و(اجتر الأسدُ التفاحةَ) و(افترس الثورُ الولدَ) و(شرب العشبُ الماءَ) و(رضع المولودُ العشبَ). بينما يصح من بين أمثلة الشكل السابق تركيبان اثنان، وهما اللذان يحملان رقم (6، 8) لأن تفاعل وحدات التركيبين جائز في نظام اللغة العربية، وهذان التركيبان هما على التوالي: (احتسى الصعلوك الخمرة) و(قضمت الدابة الشعير)، فيجوز إيقاع فعل الاحتساء على الخمرة، كما يصح إسناد فعل القضم إلى الدابة ويصح إيقاعه على الشعير لأنه مما يُقضم لا مما يُخضم.

هذا – كما أشرنا سابقا– إذا كانت تلك الجمل المشكَّلةُ فعليةً ليس فيها تقديم وتأخير بين الفاعل والمفعول، كما يمكننا الحصول على جمل اسمية بتقديم الفاعل على الفعل ليتحول إلى مبتدأ، ومع ذلك تبقى تلك التراكيب الاسمية في حكم التراكيب الفعلية السابقة لا يصح منها إلا التركيبان السادس الذي يتحول إلى (الصعلوك احتسى الخمرة) والثامن الذي يصير(الدابة قضمت الشعير).

يمكننا التنبيه إلى حصول التفاعل الغيابي على مستوى الوحدات الصغرى الدالة ضمن العلاقة الترابطية أو الاستبدالية، وذلك على غرار التفاعل الحضوري على مستوى تلك الوحدات ضمن العلاقات التركيبية كما أشرنا إلى ذلك سابقا. ويتمثل ذلك في إمكانية إحلال صوت آخر من أصوات اللغة محل أحد أصوات الكلمة، سواء من الصوامت أو الصوائت، ففي الفعل(كتب) مثلا، نحصل على وحدات أخرى من خلال التقابل بين الفونيمات كاستبدال العين بالكاف (عتب) أو السين بالتاء (كسب) أو الميم بالباء (كتم) أو الضمات بالفتحات (كُتُبُ)... إلخ، وهو تفاعل غيابي غير أنه بين الوحدات غير الدالة.

5. قيمة التفاعُلَين:

إن تفاعل الأدلة اللغوية ضمن العلاقات التركيبية والعلاقات الترابطية مفضٍ للأداء الصحيح للغة، وبذلك يُفَسَّر عدمُ خطأ جلِّ أبناء المجتمع الواحد في التركيب والاختيار إلا قليلا، فلا نسمع بين مستعملي العربية: **أكل** الولد الحليب، افترس الثور الولد، رضع المولود الشعير، **شرب** العشب الماء، قضمت الدابة **العشب**... إلخ، بينما نسمع جملا فعلية مثل: أكل الولد التفاحة، افترس الأسد الولد، امتص العشب الماءَ... إلخ، أو جملا فعلية مثل: الولد أكل التفاحة، الأسد افترس الولد...إلخ، لأن الفضل في ذلك يعود – فضلا عن آلية التركيب– لآلية **الاختيار**

التي يشتغل بها النظام فيمكّن الوحدات اللغوية من أن يتفاعل بعضها مع بعض باستمرار وبطريقة سريعة وآلية لا يشعر بها مستعمل اللغة في الغالب الأعم، وهي عمليات عقلية تفاعلية بالغة الدقة والتعقيد في الوقت نفسه، لكنها تضمن للإنسان الاستعمال الصحيح للغة في كل مستوياتها سواء تعلق الأمر بإنتاج الأصوات أو الكلمات أو المركّبات والجمل (ينظر: السعران، دت. ص: 206) أو غير ذلك مما تشتمل عليه اللغة.

ولا يقف على حقيقة هذين التفاعلين إلا اللساني الحق الذي شغل نفسه بالكشف عن النظام اللغوي، وبوصفه وصفا علميا مبيّنا من خلاله التفاعل النشيط للأدلة فيما بينها من خلال عمليتي الاختيار والتوزيع المتسمتين بالسرعة واللاشعورية، إلا إذا كان مستعمل اللغة مبتدئا غير ملم بنظامها، كأن تكون لغةً ثانية، أو كأن يكون في موقف يحتاج إلى تريث من أجل حسن الاختيار لما يترتب على سوء الاختيار من عواقب، كالتصريحات السياسية أحيانا، وإجابات الطلبة عن أسئلة الامتحانات... إلخ، وإلا فهي كنظام السياقة، حيث نلاحظ اختيار أفعال القيادة وترتيبها ترتيبا وئيدا حسب الأولية حين نكون مبتدئين، أما حين نتقنها ونتمثل نظامها فإننا لا نكاد نشعر بتلك العمليات التي كانت تأخذ منا وقتا، على الرغم من أننا لازلنا تقوم بها ولكن دون شعور بذلك.

6. مقارنة بين التفاعلين: يمكن الوقوف- من خلال ما سبق التطرق إليه- على بعض النقاط الجامعة بين التفاعلين أو الفارقة بينهما انطلاقا مما ذهب إليه دي سوسير في حديثه عن العلاقتين التركيبية والترابطية :

- يعملان معا في وقت واحد بما يشبه الغربلة العقلية، ففي الزمن الذي يحدث فيه التفاعل بين الأدلة على محور التراكيب ممثلا للعلاقات التركيبية، يحدث التفاعل على محمر الاستبدال ممثلا للعلاقات الترابطية.

- يكون التفاعل العلاماتي في إطار العلاقات التركيبية بين وحدات حضورية موجودة بالفعل، بينما يكون في إطار العلاقات الترابطية بين وحدات غيابية كامنة في الذاكرة، وهو فرق ركز عليه دي سوسير حين ذهب إلى أن العلاقات التركيبية المعتمدة على عنصرين أو أكثر إنما تعتمد على علاقات حاضرة، بينما تعتمد العلاقات الترابطية القائمة بين عناصر في الذاكرة على علاقات غيابية. (ينظر: سوسير، 1985. ص: 143)

- يكون التفاعل الخاص بالعلاقات التركيبية بين عناصر محدودة حسب ما يحتاجه التركيب أو الجملة، وحسب ما يتيحه نظام اللغة المعينة، أما التفاعل الخاص بالعلاقات الترابطية (الإيحائية) فغالبا ما تشكل وحداته اللغوية قائمةً مفتوحة لا يمكن التنبؤ بعددها أو بالنظام الذي يربطها بالضبط، ويمثل دي سوسير للتفاعل الحاصل بين عناصر هذه العلاقة بقوله:" لا تقع في نظام ثابت أو عدد ثابت. فإذا ربطنا إيحائيا بين painful وdelightful و frightful وغيرها، فإننا لا نستطيع التنبؤ بعدد الكلمات التي توحي بها الذاكرة أو النظام الذي تظهر فيه هذه الكلمات." (سوسير، 1985. ص: 145)

- تتفاعل الوحدات ضمن علاقاتها التركيبية على شكل خطي تسلسلي بارتباط الوحدة بما يسبقها من وحدات أو يلحقها أو بهما معا، أما في العلاقات الترابطية فتفاعل الوحدات مختلف عما هو عليه في التركيب، فالوحدة الدالة تشبه المركز في نسيجٍ عنكبوتي أو مجموعةٍ فلكية يلتقي فيها ما لا يحصى وما لا يمكن التنبؤ به من العناصر المتشابهة. (ينظر: سوسير، 1985. ص: 145) فلا خطية في العلاقات الترابطية، وهو الفرق الذي وقف عليه دي سوسير، إذ لاحظ أن " الارتباطات التي تقع خارج الحديث لا يدعمها التعاقب

الخطي، **ويكون مكانها في الدماغ**، فهي جزء من الذخيرة الداخلية للغة التي يملكها كل متكلم " (سوسير، 1985. ص: 142) وذلك خلافا لما يقع داخل الحديث من ارتباط.

7. خاتمة: يمكننا أن نسجل في نهاية هذا المقال الحقائق التالية:

– إن اللغة ليست مجرد رصف للعناصر ولكنها تضافر عمليتين متزامنتين تتفاعل من خلالهما العلامات اللغوية تفاعلا غيابا من جهة وحضوريا من جهة أخرى، ويتعلق هذان النوعان من التفاعل –على التوالي– بالعلاقات التركيبية والعلاقات الترابطية، ولذلك لا تحدث عملية **التركيب** التي تعقِد بين مجموعة محدودة من الوحدات التي تظهر على السطح أثناء التأدية الفعلية للغة إلا بالتزامن مع **عملية أخرى مهمةٍ في الدماغ** يتم من خلالها اختيار أيٍّ من تلك العناصر الكثيرة المخزنة في الذاكرة والمترابطة ذهنيا أولى بالظهور على مستوى التركيب.

– والفضل في ظهور اللغة على شكل بنية واحدة متماسكة أثناء التأدية إنما يعود إلى ما اشتملت عليه من علاقات وأنظمة متكاملة فيما بينها مانعة لحدوث أي انفصال مخلٍ بالبنية، حيث تربط تلك العلاقات عناصر كل مستوى من مستويات اللغة، كما تربط مستويات اللغة بعضها ببعض مشكلة بنية خاصة، وهي البنية التي يعمل البنيويون على كشفها ووصفها ودراستها من جوانبها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية... إلخ، ولذلك فإن أهم ما ينبغي الاشتغال به في الدراسة اللسانية العلمية الكشفُ عن شبكة العلاقات الداخلية القائمة بين أجزاء البنية المقصودة بالدراسة الوصفية، وبحثُ العلاقات التفاعلية بين عناصر النظام باعتبار تلك الشبكةِ من العلاقات ثابتا، واعتبار الأجزاءِ متحولا، مع التأكيد على تقديم الثابت على المتحول كما هو معروف من خلال تقديم دي سوسير للسان (La langue) على الكلام (La parole) وتركيزه على أولوية النسق أو النظام على العناصر، وتأكيده أيضا أن العناصر لا قيمة لها خارج النظام، وإنما قيمة كل عنصر بما يقيمه داخل النظام من تفاعل وعلاقات خلافية مع غيره من العناصر.

– إن اعتناء دي سوسير في وقت مبكر نسبيا بوصف ما تقيمه الوحدات اللغوية في الذهن من تفاعل وعلاقات ترابطية فيما بينها، ومن عمليات ذهنية يتم بموجبها الاختيار والاستبدال لَيذكرنا بما عرفه الدرس اللساني بعد ذلك، خاصة منذ أن لمع نجم تشومسكي الذي نظر إلى اللغة بأنها نظام معرفي عقلي يجب – لدراسته– الاعتناءُ بما يجري في الذهن من عمليات معقدة (صلاح رشيد، 2015. ص: 359) متعلقة بالتوليد والتحويل وكل ما ارتبط بالقدرة العقلية، ولا غرابة أن يتحول دي سوسير إلى ملهم للسانيين بعده بمن فيهم تشومسكي الذي اعتمد صراحة في تأسيس منهجه وبناء نظريه على كثير من أفكار دي سوسير، لاسيما ثنائية الكفاية والأداء ذات العلاقة الترابطية بثنائية اللغة والكلام السوسورية.

قائمة المصادر والمراجع:

1. جرهاد، هلبش. (2003). **تاريخ علم اللغة الحديث**. تر: بحيري، سعيد حسن، ط5، القاهرة، مصر: مكتبة زهراء الشرق.

2. ابن الجوزي، أبو الفرج. (1997). **أخبار الظراف والمتماجنين**. تح: بسام عبد الوهاب الجاني بيروت، لبنان: دار ابن حزم.

3. دي سوسير، فاردیناند. (1985). **علم اللغة العام**. تر: يوئيل يوسف عزيز. بغداد، العراق: دار آفاق عربية.

4. روبنز، روبن هنري. (1997). **موجز تاريخ علم اللغة في الغرب**. تر: عوض، أحمد. الكويت: سلسلة عالم المعرفة 227، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون.

5. السعران، محمود. (دت). **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**. بيروت، لبنان: دار النهضة العربية.

6. صالح، عبد الرحمن الحاج. (2007). **بحوث ودراسات في علوم اللسان**. الجزائر: دار موفم للنشر.

7. صلاح رشيد، هدى. (2015). **تأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب**. ط1، الجزائر: منشورات الاختلاف.

8. غاري بريور، ماري نوال. (2007). **المصطلحات المفاتيح في اللسانيات**. تر: الشيباني، عبد القادر فهيم، ط1، الجزائر: مطبعة سيدي بلعباس.

9. مومن، أحمد. (2002). **اللسانيات النشأة والتطور**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.